

الخليفة العظيم

قد يشعر القارئ بشيء من خيبة الأمل، حين يرى أننا قد بلغنا هذا القدر من الكتاب ولم نسرد له إلا قليلا من أعمال البطولة وأحاديث الحروب، وأننا بدل أن نقص عليه سير الأبطال، طغى بنا القلم إلى الإسهاب فى اضطراب حركات الأجناس، وثورات الأديان. نعم إننا بدأنا بداءة تستثير العاطفة وتحبس الأنفاس بذكر طارق وجنده من البربر الذين لم تكن فتوحهم اللامعة من أساطير الخيال، ولم تكن فى صحة حوادثها أقل من تاريخ القرن التاسع عشر، وقفينا على ذلك بذكر الموقعة الكبرى الفاصلة، موقعة طلوشة (تولوز) وهى حقاً من الوقائع المؤثرة وإن أعوزها كثير من الإسهاب التاريخى. ثم ألمنا بموقعة العرب مع الإفرنج، وبمعركة رونسيسفال التى أبعد وصفها فى الخيال، وغشاها غمام من خطرات الأوهام، ومر على هذه المعركة مائة عام، فوصلنا إلى مقتل يولوجيوس، وإلى خمود حركة الاستشهاد الدينية.

ولم نكن فى غضون هذا القرن نقرأ فى تاريخ الأندلس إلصراعاً عنيفاً بين العشائر والمذاهب الدينية المختلفة التى تمثل الشعب الإيبانى، ومهما يكن من شيء، فإن أعمال البطولة نادرة دائماً، وكثيراً ما تكون من خلق الشعراء، فإن عقولهم الروحانية كثيراً ما

تلبس بعض حوادث الحرب العادية أثواباً من البطولة لا تدركها الأفهام، في حين أن الصراع بين قبيل وآخر أو مذهب وآخر هو كل ما شهدته الدنيا منذ وجد الإنسان، فمن الحق إذاً ألا ننساق مع أنفسنا في اعتقاد أن تاريخ الحركات العظيمة خالٍ من الروعة لأنه خال مما يسحر النفس من أعمال البطولة الفردية، فقد كان لكثير من المغمورين من الرجال والنساء في غضون عصر الاستشهاد الديني إخلاص وجهاد وبطولة تفوق أعمال الفرسان في ساحة القتال، لأنه من السهل أن تكون شجاعاً في معركة تغلى فيها الدماء، أما أن تبصر نذر الهلاك وتحتمل السجن الطويل المدى، وتنتظر بشجاعة وجلد يوم الإعدام وأنت ثابت القلب رابط الجنان - فشيء فوق طاقة كثير من الناس.

أخطأ شهداء المسيحيين في رأيهم جادة الصواب، وقذفوا بأرواحهم في غير مقذف، ولكن شجاعتهم مع هذا كانت جديرة بالإعجاب، كما كانت عقولهم جديرة بالرحمة.

كانت فلورا بطلة حقاً، كما لو ضحت بحياتها في سبيل حقيق بالتضحية، وخلق يولوجيوس من طينة الأبطال على الرغم من تعصبه وتزمتيه، وكم في كل هذه الثورات السياسية والدينية التي مرت بنا من أعمال تجلى فيها الإخلاص والثبات والعزم والاحتمال، وهذه - وإن فرت من عين المؤرخ - لا تقل عن أعمال البطولة اللامعة في ميادين القتال.

إن أشق واجبات الإنسان لا يظهر غالباً إلا فى صغار حوادث البطولة، وإن فى المعارك والتحام الجيوش فرصاً لا تعد لتكوين الأبطال.

ويسهل جداً أن ترى البطولة واضحة فى شخص من أن تراها فى شعب أو مدينة، وها نحن أولاء بصدد حياة رجل يعد بين قليل ممن قربوا من المثل الأعلى فى عظمة الملك وقوة السلطان.

إن الملك العظيم أثر الحاجة الملحة والخطب العظيم، فإذا اشتدت آلام الأمة وطال بأسها، وازدحمت أيامها بالكوارث، ورف غراب الدمار بجناحيه فى الأفق - جاء الملك العظيم لينقذ قومه من بين براثن الخطر، وليعيد إليهم الرفاهية والهدوء والأمن، وليحكم مملكة كتب لها أن تنهض بهمته ومساعيه إلى القوة والسعادة بعد الضعف والانتكاس، وقد كانت الحاجة بالأندلس إلى مثل هذا الملك شديدة فى طليعة القرن العاشر، فقد تلت ثورة المسيحية التى اشتعلت بقرطبة ثورات، وانتشر العصيان فى ولايات الأندلس، وتناوب عرش المملكة أمراء لا خير فيهم، ولا غناء عندهم^(١)، وقضى على السياسة النشيطة العاملة التى قام بها المنذر الذى خلف أباه فى سنة ٨٨٦ م / ٢٧٣ هـ بقتله فى سنة ٨٨٨ م / ٢٧٥ هـ

(١) مات عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ هـ وخلفه ابنه محمد وكان له غزوات موفقة فى شمال إسبانيا، ثم مات فى سنة ٢٧٣ هـ وخلفه ابنه المنذر ولم تطل مدته، إذ أقام بالملك نحو سنتين ومات سنة ٢٧٥ هـ وولى بعده أخوه عبد الله بن محمد.

وجاء بعده أخوه عبد الله الذى دبر مقتله ، فكان أضعف من أن يقف على قدميه فى وجه الخطر الذى كاد يذهب بملكه ، لأنه كان متقلباً مضطرباً ، وكان يناوب بين الشدة والاستخذاء فلم ينجح فى كليهما ، وكان حقيراً قاسياً شريراً ، فأجمع الناس لأول مرة على كراهيته ونبذ طاعته ، ولم تمض ثلاث سنوات من حكمه ، حتى كان القسم الأعظم من الأندلس مستقلاً فإن الأحزاب المختلفة التقت على معارضته ، واهتبل كل نبيل أو زعيم من العرب أو البربر أو الإسبان فرصة ضعفه وسوء حكمه ، وما أصبحت فيه الأندلس من الفوضى الطخياء الشاملة – فاختص نفسه بقسم من المملكة ، وقام يتحدى الأمير من وراء حصونه .

وكان عظماء العرب من أبناء الفاتحين قليلى العدد ، فلم يمنعهم ضعفهم ، ولم تقعد بهم قلتهم عن أن يقلبوا للأمير ظهر المجن ، فاستولوا على بعض إمارات منها إشبيلية التى أصبحت منافساً مخيفاً لقرطبة ، أما فى المدائن الأخرى وحيث كان العرب أضعف من أن يقاوموا الأمير ، فإنهم خضعوا له خضوعاً صورياً ، واستقل حاكماً لورقة وسرقسطة استقلالاً حقيقياً ، ولم يبق للأمير من يستنصر به إلا الجنود المرتزقة الذين أخضعوا له أهل قرطبة إخضاعاً ظاهرياً ، بحيث إذا جاوز المرء قرطبة لم يجد عربياً واحداً يرجى منه أن ينصر الأمير أو يدافع عن الدولة الأموية .

وكان البربر أكثر عدداً من العرب، وأشبه بهم فى السخط والعصيان، فخلعوا ربة الطاعة للأمير، وعادوا إلى نظام القبائل، واستقلوا بالولايات الغربية مثل: استرامادور، وجنوب البرتغال، واحتلوا مراكز عظيمة الشأن فى الأندلس نفسها كمدينة جيان، وكانت أسرة ذى النون البربرية تتألف من أبيهم موسى وهو شرير كبير ولص بغيض، ثم من أولاده الثلاثة الذين أشبهوه فى قوته وقسوته^(١) فدهمت هذه الأسرة الأندلس كلها بالسيف والنار، وعاثت بالفساد فى جميع نواحيها تحرق وتنهب وتقتل أينما سارت.

وكان الإسبان المتسلمون الذين صقلتهم مدينة العرب بعض الصقل، أقل وحشية من البربر وإن لم يقلوا عنهم فى بغض الحكومة، فاستولوا على ولاية الجرف فى الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة، وملكوا عدداً عديداً من المدن والولايات المستقلة بالأندلس، وفى الحق إن معظم المدن العظيمة كانت فى ثورة مقنعة أو سافرة، فقد اتحد حكام العرب وزعماء البربر والإسبان المتسلمين على معارضة الأمير والاستهانة بأمره، وكان ابن حفصون أكثر هؤلاء قوة وأشد مراساً، وهو مسيحي^(٢) أثار سكان الجبال بغرناطة، وأقام فى حصانة معقله ببشتر «بوباستور» يحكم ويشرع للبلاد حوله،

(١) هم يحيى وفتح ومطارف.

(٢) يقال إنه كان مسلماً وارتد إلى المسيحية حوالى سنة ٩٠٠ م وسمى نفسه

وطالما جرد الأمير عليه جيوشاً فأبّت بالخذلان والهزيمة، ثم التجأ الأمير آخر الأمر إلى مصالحته وملاينته، ولكن ابن حفصون كان فى هذه الناحية أوسع منه حيلة وأشد مكرًا^(١)، وكانت مرسية مستقلة يحكمها أمير متسلم، حكمًا رفيقًا حازمًا، فأحبته رعيته، ولم يغفل مع ولوعه بالشعر والأدب عن تحصين مملكته بجيش عظيم، عدته خمسة آلاف فارس، وكانت طليطلة كعادتها ثائرة صاخبة، ولم يعق نصارى الشمال عن الاستيلاء عليها واسترداد ملكهم المسلوب إلا ما شجر بينهم من خلاف وانقسام.

هكذا كانت حال الأندلس، وهذا ما آل إليه أمرها، فقد أصبحت ممزقة الأشلاء، منبثة الأواصر، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التى صارت أشبه بالضيايع منها بالولايات التى تكون دولة قوية، وصارت أعجز من أن تقف فى وجه فاتح قوى عزوم. وكانت تلتهم أحيانًا أشعة من النور فى ظلام هذه الفوضى القاتمة، فقد ذكرنا آنفًا: أن حاكم مرسية كان أديبًا مثقفًا كما كان يشتهر حاكم قسطلونة بإغداقه على الشعراء ورجال الفنون، وكان يعيش فى قصر فوق أعمدة من الرخام، غطيت حيطانه بزخارف من المرمر والذهب، واشتمل على كل ما تشتهى النفس من النعيم.

(١) فى أخبار مجموعة: وهلكت الجبايات باشتداد شوكة الثوار بكل ناحية، وانبسخت خيل ابن حفصون على مرحلة من قرطبة دون أن يدفعها دافع، وبلغ الأمر أن تقدم فارس فائقهم قنطرة قرطبة ودفع رمحه فأصاب الصورة التى على القنطرة، وتمادى هذا البلاء خمسًا وعشرين سنة.

أما ابن حجاج حاكم إشبيلية فإنه اضطر الأمير إلى مصالحته ومصادقته وحمل أعباء الحكم كريماً نبياً، وأخذ رعيته بالرفق، فرفرف فوقها علم السلام والطمأنينة، وعاقب المجرمين بعدل وصرامة، وأقام مراسم الملك فى جلال وعظمة، وبلغ حرسه خمسمائة فارس، وكان رداؤه الملكى من الحرير المنسوج بخيوط الذهب والفضة، كتب عليه اسمه وألقابه بالذهب الخالص، وذاعت شهرته فراسله الملوك من وراء البحر وبعثوا إليه بهداياهم، وتوافد عليه العلماء والفقهاء من المدينة المنورة، وازدان قصره بأشهر المغنين من بغداد، وكانت جاريته «قمر» البغدادية شاعرة رائعة الحسن، بديعة الصوت، فصيحة اللسان، مرهفة الحس، وهى التى تقول فيه:

ما فى المغارب من كريم يرتجى إلا حليف الجود إبراهيم
أنى حللت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه زميم

وقد اجتذب إلى قصره الشعراء، فأمه جميعهم، حتى شعراء قرطبة الذين وثقوا من كرمه وتكريمه، وأعرض مرة عن شاعر وأنبه لأنه أراد أن يسره بهجاء منافسيه من أشرف قرطبة، وكان من قوله له: لقد كذبتك نفسك يا هذا إن ظننت أن رجلاً مثلى يهش لسماع هذا الهجاء الدنىء.

ولكن كل هذه الأشعة اللامعة من الحياة الأدبية والثقافية لم تخفف إلا قليلاً من اضطراب الفوضى العامة التى شملت ربوع

الأندلس وصيرتها فريسة للكوارث التي منها ضعف حكومة قرطبة، وخروج كثير من حكام الأقاليم عن الطاعة، وانتشار عصابات اللصوص وقطاع الطرق بالبلاد، حتى صارت المملكة إلى حال تستنزف الدمع من الشئون، وأصبحت قرطبة نفسها - وقد توالى عليها غارات ابن حفصون ورجال عصابه - فى حزن مقعد مقيم، وكانت - وإن لم تحاصر بالفعل - تقاسى ما هو شر من الغزو وأشد من الحصار. ويقول مؤرخو العرب:

«كانت حال قرطبة تشبه حال ثغر تعرض لهجمات الأعداء، فكثيراً ما فزع سكانها من نومهم فى جوف الليل لصياح الزراع على شاطئ النهر وقد وثب عليهم لصوص الطرق يغمدون سيوفهم فى رقابهم».

وكتب بعض من حضر هذا العهد يقول: «لقد أصيبت المملكة بانحلال شامل، فقد تلت المصائب المصائب فهى لا تنقطع، واستمر النهب والسرقات، وجرت زوجاتنا وأولادنا قسراً إلى الأسر والعبودية».

وعمت الشكاية من تهاون الأمير وضعفه وضعته، وتذمر الجنود لمنع إعطياتهم، وضنت الولايات بإرسال حاصلاتها، وخلت خزائن الدولة من المال فأصبحت قفراً يباباً، وكل ما استطاع الأمير أن يقترضه من المال رشا به بعض العرب الذين كانوا يراءونه ويصطنعون له الإخلاص، وأظهر خلاء الأسواق من الأقوات ما أصاب التجارة

من الضرر الفادح والبوار، وأصبح ثمن الخبز فوق متناول الخيال، وعاد الناس - وقد ملكهم اليأس - لا يفكرون إلا فى يومهم، أما الفقهاء والمتزمتون فقد عدوا ذلك من سخط السماء، وأن ابن حفصون لم يكن إلا آلة لنقمة الله وغضبه، ثم أخذوا ينشرون بين الناس تكهينات مفجعة محزنة، وكم صاحوا يقولون:

«ويل لك يا قرطبة ... ويل لك يا بؤرة الفساد ونذير الزوال ... يا موطن الفجائع والاضمحلال، لقد أصبحت بلا صديق أو حليف، ستحل مصيبتك حينما يصل إلى أبوابك القائد الكبير الأنف، الدميم الوجه، الذى يحرسه المسلمون من أمامه والكافرون من خلفه، فإن فى وصول ابن حفصون إلى أسوارك القضاء المبرم والفناء المحتوم!!».

وحينما ازدادت الأمور حلكة وظلاماً، سطع شعاع من الأمل لليائسين من سكان قرطبة، فإن الأمير عبد الله الذى تملكه اليأس كما تملك رعيته حاول أول مرة أن يعزم على عمل سياسى جريء، وأن يخرج من المأزق الذى وضع فيه نفسه، فنهض بما عزم^(١) على الرغم من تثبيط أتباعه له وكثرة عدد الأعداء المحيطين به من كل جانب، ولكنه بعد قليل عمل خيراً من كل هذا، عمل ما كان يجب أن يعمل له لأتمته من زمن بعيد ... ذلك أنه مات فى الخامس عشر من أكتوبر سنة ٩١٢ م / ٣٠٠ هـ بعد أن بلغ الثامنة والستين، وبعد

(١) حارب ابن حفصون فى سنة ٨٩١ م / ٢٧٨ هـ بالقرب من قرطبة وانتصر عليه.

أن قضى فى الحكم أربعة وعشرين عاماً كلها حزن وشقاء، فقد رأى بعينه من تدهور سلطان الأمويين - وكان تدهوراً سريعاً مفاجئاً - ما يصعب علاجه على المصلحين، ولكن الله قدر لحكم خليفته أن يرى أيضاً لهذا السلطان بعثاً سريعاً مفاجئاً، كاملاً شاملاً.

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر حفيداً لعبد الله، وقد ولى الحكم فى الحادية والعشرين من عمره، وكان يظن أن يزاحمه عمه وأقاربه على الإمارة وهو فى هذه السن وفى هذا الوقت العصيب، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، واستقبلت الأمة ولايته بصيحات الاستبشار والرضا من كل ناحية.

وكان الخليفة الجديد محبوباً من الشعب ورجال القصر، تضافرت وسامة طلعتة، وحسن سمته، وكرم أخلاقه، وقوة إدراكه، على أن تجعل منه خليفة تعشقه الجماهير، وأحس القرطبيون - وهم البقية الباقية من رعيته - بتجدد الأمل فيهم وهم يرقبون بواكير أعماله.

ولم يحاول عبد الرحمن إخفاء مراميه ومآربه، فقد هجر سياسة جده إلى غير عودة، وكان تناوحتها بين الضعف والقوة سبباً فى دمار البلاد، وأعلن مكانها فى صراحة أنه لن يسمح بأى عصيان فى أى جزء من أجزاء المملكة الأموية، ثم دعا الساخطين ورؤساء القبائل إلى الخضوع لسلطانه بعد أن أرسلها كلمة صريحة بأنه لن يترك جزءاً من مملكته يتحكم فيه العصاة، وكان فى برنامجيه من الجرأة ما ينعش آمال أكثر المتفائلين، وإن خاف كثير منهم من أن هذا

البرنامج قد يؤلب العصاة فى جميع أنحاء المملكة، ويجمعهم عصابة واحدة لسحق هذا الأمير الشاب العنيد، ولكن عبد الرحمن كان يعرف أخلاق أهل مملكته، فلم يكن فى جرأته عابثاً أو متهوراً. لقد مضى جيل منذ أن رفع ابن حفصون وأشياعه علم الثورة، واعتقد أكثر الناس أن فيما نالهم من أوزارها ما يكفى، وفوق الذى يكفى^(١)، وبردت تلك النار التى كانت تتأجج فى قلوب الإسبان المتسلمين والمسيحيين وتدفعهم إلى الكفاح فى سبيل الاستقلال. وأمثال هذه البدوات لن تعيش إلا إذا بلغت غاية الفوز عند أول اشتعالها، لقد كان الزعماء الآن بين ملحود لا يعود، وشيخ لا يرجى، فهدأت الروح الثائرة فى نفوس أتباعهم، وأخذ الناس يسائلون أنفسهم عما حصلوا عليه من جراء ثوراتهم؟ إنهم لم يطهروا الأندلس من الكفار، ولكنهم على النقيض أسلموها إلى أكثر من الكفار شرّاً: إلى زعماء اللصوص والمجرمين المخاطرين. فقد منيت المملكة فى جميع جهاتها بعصابات من اللصوص أتلقت الزرع والكروم، وتركت الأراضى وراءها قفراً يباباً، وأحس الناس أن كل شىء كيفما كان خير من تحكم هذه العصابات، وأن الأمير لن ينقل الأمور إلى أسوأ مما هى عليه، لذلك اتجهوا إليه ينظرون إلى ما يستطيع عمله لإصلاح هذه الحال.

(١) مات فى ذلك الوقت سعيد بن جودى وكريب وابن حجاج.

وكان من أثر كل هذا أن الخليفة حينما هب يقود جيوشه لمحاربة الولايات الخارجة عليه، رأى أن أكثرها أقرب إلى الخضوع من العصيان، وزاد في حماسة جنوده أن رأوا أميرهم الشاب الشجاع في مقدمتهم، وهو شىء لم يعهدوه من عبد الله جده، فساروا وراءه معجبين مستميتين، وأخذت المدن بالأندلس تفتح للأمير أبوابها واحدة إثر واحدة، فسلمت الولايات التي في جنوب قرطبة أولاً، ثم ألفت إشبيلية بقيادها، وأجبر البربر في الغرب على الطاعة، وأسرع أمير الجرف بإرسال الإتاوة، ثم تقدم الأمير لقتال النصارى بمقاطعة ريه (ريو) حيث يسكن منذ ثلاثين عاماً رعايا ابن حفصون الشجعان في معاقلهم الجبلية، وكان عبد الرحمن أعرف الناس بأن مثل هذه المعاقل لن ينال بظفر سريع، لذلك خطا خطوات متتدة حتى أخضعها لسلطانه، فسلم إليه معقل بعد معقل، بعد ما رأى أعداؤه ما بهرهم من عدله وشرفه، وأنه قد حافظ على معاهدته مع النصارى أكرم محافظة، وأنه أظهر غاية الحلم والصفح لكل من سلموا إليه، ولكن ابن حفصون بقى في معقله متحدياً مغالباً كعاداته، غير أنه كان قد شاخ فأدركته المنية، وأصبح استيلاء الخليفة على حصن «ببشتر» أمراً هيناً موكولاً إلى الزمان.

وحينما وقف الأمير على مشارف هذا الحصن المنيع بعد استيلائه عليه، ونظر من بعده الشاهق إلى القمم الشديدة الانحدار التي تحيط به، ثار وجدانه، وغمرته عواطفه، فسجد لله شكرًا على

هذا الفتح المبين، وبقي مدة إقامته بالحصن صائماً، وشمل أعداءه بالصفح والغفران.

ثم ألقت مرسية بالقياد، وخضعت للخليفة، أما طليطلة فبقيت على تحديها وعصيانها ورفضت في كبرياء وغرور ما عرضه عليها عبد الرحمن من الهدنة، وانتظرت الحصار بصبر وجلد، ولم يخطر ببال أهل المدينة أنهم منوا بأمر يخالف طابعه من عرفوهم من القواد الضعفاء الذين طالما آبوا بالعار والخيبة أمام حصونها المنيعة.

هجم الخليفة على طليطلة ووقف بجيشه لحصارها، ثم أراد أن يفهم من لم يكن يفهم أن هذا الحصار لم يكن محض تهديد، فأمر أن تبني مدينة صغيرة فوق الجبل المقابل لها سماها: «الفتح» وربض ينتظر عواقب الحصار، فلما اشتد الجوع بالسكان سلمت المدينة ودخلها عبد الرحمن فكانت آخر مدينة دانت له بالطاعة في المملكة التي ورثها من سميّه عبد الرحمن الداخل، والتي بلغت الآن في سنة ٩٣٠ م / ٣١٨ هـ غاية امتدادها. وقد اقتضته إعادة ما ضيعه أسلافه من المملكة ثمانية عشر عاماً، غير أنه فاز بما أراده وأتمه، وعادت سلطته قوية الدعائم بين العرب والبربر والإسبان والمسلمين والمتسلمين، ومن هذا الحين أبى أن يخص أى حزب من رعيته بميزة أو يرفعه فوق غيره، وشدد الضغط على زعماء العرب، فابتهج الإسبان بإذلالهم، وأصبح الملك اليوم خالصاً للخليفة وحده، فحكم مستقل الرأى مستبداً، وقابلت الأمة استبداده بسرور وغبطة

بعد عدة سنوات قضتها فى الاضطراب والفوضى ، وبعد أن استراح
الناس من العصابات التى كانت تغير على زروعهم وكرومهم .
وإذا كان الخليفة مستبد السلطان ، فإنه لم يتجاوز الحد فى استبداده
الذى أعاد الناس إلى حياة الأمن والثروة ، وأطلق عقالهم لينالوا من
الغنى ورغد العيش ما يشتهون على النحو الذى يشتهون .

